

الانسة جرترود لثيان بل

Miss G. L. Bell.

بلىنا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
(ليد بن ربيعة)

يجلري ان اصدر ترجمة فقيده العلم والسياسة بهذا البيت
لليد بن ابي ربيعة لان صديقتنا الراحلة كانت مولعة به وقد حلت
به جيد كتابها الانكليزي المعنون « من مراد الى مراد ». اجل
لقد ماتت الانسة بل وبليت. ولكن اعمالها نجوم طوالع في سماء

وقال جرير يعير من اخذ الدية فاشترى بها نخلا :
ان ابلغ بني حجر بن وهب
ومثل قول جرير قول الفرزدق :
اكلت دما ان لم ادعك بضرة
يريد بالدم الدية .
وقال آخر :

خليلان مختلف شكل
اريد دماء بني مالك
اريد العلاء ويغي السمن
وراي المولى يياض اللبن

وهذا وان كانت الشريعة قد ابطلته وجاءت بما هو خير منه واصحح في
المعاش والمعاد من تخيير الاولياء بين ادراك الثار ونيل التشفي وبين اخذ الدية
فان القصد به ان العرب لم تكن تعير من اخذ بدل ماله ولم تعدد ضعفا ولا عجزا
البتة بخلاف من اخذ بدل دم وليه فما سوى الله بن الامرين في طبع ولا عقل
ولا شرع . ١٢٨

العلم وآثار همتها جبال راسية تكافح عوادي الدهر ومعبانها في السياسة تحدث بها الاجيال المقبلة وهذا كله خالد لا يبلى يرويه الخلف عن السلف .

عرفتها عالمة ورحالة وسياسية . عرفت نفسياتها في مظاهر روح الانسان المختلفة . اخذت ترجمتها عنها ونشرتها في مجلة المقطف (نوفمبر ١٩٢٢) فصداقتنا الوثيقة العرنى ووقوفى على ما انطوت عليه تلك النابغة من الهبات ، يؤهلاني لكتابة ترجمتها وتحليل نفسياتها .

ولدت الانسة جرتروود لثيان بل في ١٤ تموز سنة ١٨٦٨ من أسرة عريقة في الحسب ، كثيرة النشب ، موطنها شمالي بلاد الانكليز في تخوم اسكتلندة وقد كان جدها الاعلى اول من سعى في تأسيس المعامل الكبرى لتعدين الفحم والحديد . اذ ارتقت الصناعة ارتقاءها العظيم في الثلث الاول من القرن الماضي ، ولا يزال والدها السرهيو بل حيا يرزق ، وقد زار العراق سنة ١٩٢٠ وهو شيخ قد اشتعل رأسه شيبا .

ان البيثة التي ولدت فيها جرتروود بل بيثة سعادة وزفاهية ؛ بيثة غنى وشرف باذخ ، كانت تغنيها عن مكابدة الاتعاب والمشاق ، وتجشم المخاطر والاهوال ، ولكن نفسها العظيمة التواقة الى

السمو والمعلي رفعتها عن مواطن الراحة التي تغلذ اليها الغواني
والسيدات الموسرات وانزلتها حلبة الجهاد العلي والاجتماعي
والسياسي ساخرة بالطارف والتلبد. مغرمة بالرفعة العقلية.. متلذذة
بطيب اثمار المساعي الذاتية .

توفرت الاسباب للراحة الكريمة لترفعها الى مصاف العظماء
والعظيمات . ولكن قامت بوجهها عراقل وعقبات كافية لنشيط
همم الرجال فضلا عن همم الانسات : اما هي فقد عرفت كيف
تستفيد من الاولى . وكيف تذلل الثانية فخرجت من المعترك
حاملة لواء النصر على قمم الدهور وخلدت لها اسما عظيما في
التاريخ .

جاهدت الجهاد الحسن في كل ادوار حياتها منذ كانت تلميذة
في مدرسة « كوينس كوليج » ثم طالبة علم في كلية « ليدي
مغريريت » في او كسفورد حيث برزت رفقاءها ورفيقاتها وتالت
الشهادة العليا وبقيت كذلك حتى دعاها داعي الحمام على ما يأتي .
مدارك سامية . علو همة . ارادة فولاذية . هي ار كان ثلاثت
قامت عليها شهرتها . نعم ان مداركها لسامية بكل معنى الكلمة ؛
تشهد بذلك مؤلفاتها الكثيرة . وكتابات وخطاباتها واحاديثها
الطيبة، المأوأة حكمة وفائدة: كلها دلائل واضحة على فكر توفيقادة

ودماغ جوال، وحافظة حافلة بماحسن وطاب، وذاكرة سريعة؛ ومحاكمة صحيحة. سريعة الكتابة تسير بقلمها سير الفارس بجواده وقلبا تعصيا كامة، او تتعرد عليها عبارة، او تخونها ذاكرتها في ايراد اسم شخص او محل. كأن دماغها ينبوع فياض يتدفق منه الماء. عفوا.

ان هذه المزايا والهبات أهلتها لتعلم لغات عديدة وعلوم شتى فانها كانت تعرف ما عدا لغتها الانكليزية، الفرنسية والالمانية والعربية والفارسية. وقد امتازت بالتاريخ، وعلم الاثار، والانسلب.

اما همتها: «فحدث عن البحر ولا حرج» بنت دلال وترف. عادة دواوين لندن، خريجة او كسفورد، نحيفة البنية؛ تمتطي الابهوال، تقطع الفيافي والبراري مع نفر قليل على ظهور الخيل والابل، تجول البحار، وترتقي الجبال، وتركب متن الهواء، غير هتابة ولا وجله؛ تخوض غمارات الحرب، وتقطع اشواطا كبيرة في السياسة. اليس هذه الاعمال من مشاهد المهمة البعيدة؟ همة لا تعرف الكلل ولا يعتورها الملل. تصل الليل بالنهار في الكتابة والعمل والمقابلة. وتتقل من موضوع الى آخر وهي على نشاط من عزمها لا تتبرم ولا تمل. وهي على كثرة اعمالها كانت

شديدة الشغف بالمحافظة على الوقت، وعلى نظام المواعيد لا تتقدم دقيقة ولا تتأخر .

ارادتها — ما اعظم الارادة التي كانت تغفل بين ثنايا ذلك الجسم النحيف والقدر الهيف: ان ارادت امرا اندفعت اليه وان اعتقدت بصلاحه انجزته : فلا تنكل عن خطة ولا تبسطها عقلة . لاقى الامر من بعض المعارضين لفكرتها من رجال البريطانيين في السياسة التي وجب على بريطانيا العظمى اتباعها في العراق: الا انها قاومتهم مقاومة الابطال بمعاونة الرجال الذين كانوا على فكرتها فكان النجاح في جانب حزبها فقام في العراق دولة عربية عزيزة الجانب يرأسها ملك عربي من البيت الهاشمي الرفيع المجد . وقصارى القول ان اعمالها اليومية كانت على هذا الغرار من قوة الارادة ومضاء العزيمة . ولا غرو ان التي تتخذ رائدها الارادة وشعارها الهمة القعساء . تكون صريحة في اقوالها صراحة يستصعبها بعضهم ويشجبها الآخرون . ولا سيما اولئك الذين لم يتعودوا الجرأة الادبية ولم يأنسوا بمظاهر التريسة الاستقلالية التي تكاد تكون ميزة ابناء التيمز وبناته .

مع تلك المنزلة العالية . والارادة الفولاذية . والصراحة الاستقلالية : لم تكن متصلة في آرائها مكابرة في افكارها مغالية

في مناحيها ، بل كانت ترجع عن رأي يفند ببرهان وتعدل من فكر
يظهر لها خطأ وتميل عن مناح تجد اصلح منها. كل هذا مما يشف
عن عظمة في نفسها ونبوغ في دماغها .

اما عاطفتها - فقلبها اشبه شيء بالكنارة ذات الاوتار يحفظ
نظامها عقلها السليم؛ فتسكت انغام تلك الاوتار ان عاجلت صعب
الامور او تعاطت اعمالا مع الساسة واعاظم الرجال ؛ وتسمعك
انغاما شجية وابقا مخزنا ان كان موضوعها مؤاساة للبشرية
المتألمة ، او الاخذ بساعد بعض البؤساء ومسح دموع المنكوبين
والمبتلين . وخلاصة القول تفرغت بارادة الرجال ، ولم تفقد
عاطفة الاناث .

الرحالة والمؤلفة

نشأت المس بل شديدة الشغف بالرحلات والتأليف ؛ فضرب
هنا صفحا عن اسفارها العديدة في الاقطار الاوربية ونخص بحثنا
برحلاتها في الشرق ذلك الشرق الذي احبته حبا جما حتى قضت
نحبها فيه وضم جثمانها .

رحلت الى الشرق لأول مرة سنة ١٨٩٩ مع زوج خالها المستر
سفر ذلك لسلس سفير بريطانية العظمى في طهران آتذ ؛ وولعت
هناك بدراسة اللغة الفارسية حتى اقتبست جانبا منها وترجمت قسما

من قصائد حافظ الشاعر الفارسي الشهير الى الانكليزية . وفي
السنة التالية ١٩٠٠ زارت سورية وطافت في جبل الدروز واطراف
البادية : وكان غرضها من هذا السفر تعلم لغة الضاد فظفرت
ببغيتها : الا ان حبها للعرب ولسانهم دفعها مرة ثانية سنة ١٩٠٣
الى زيارة سورية وثابتت هناك على الدرس والمطالعة فتاسع لها المجال
للقوف على اسرار العربية وضبط شواردها : ومنذ ذلك الحين
اخذت ترحل كل سنتين رحلة الى بلاد الشرق ، وكانت تدوم كل
رحلة ستة اشهر . فسافرت سنة ١٩٠٥ الى الاناضول وفي سنة
١٩٠٧ نقت في اطلال قرب قونية .

واول مرة نزلت العراق كانت سنة ١٩٠٩ . وفي سنة ١٩١١
سافرت مع اخيها الى الهند واليابان ثم جاءت وحدها الى العراق
وفي سنة ١٩١٣ سافرت من الشام الى حائل ونزلت ضيفا على ابن
الرشيد : وفي ربيع سنة ١٩١٤ اي قبل الحرب العامة جاءت الى
بغداد ومنها ذهبت الى الاستانة ، فواجهت فيها غير واحد من
وزراء المملكة العثمانية كجمال باشا وغيره .

ولما نشبت الحرب العامة انتظمت في جمعية الصليب الاحمر
وقضت سنة في لندن : ثم سافرت الى فرنسا سنة . وفي شتاء ١٩١٥
هبطت مصر وانضوت الى ادارة السيلسة ، وبقيت هناك حتى

واخر شباط ١٩١٦ فانتقلت الى البصرة؛ وفي سنة ١٩١٧ انتقلت الى بغداد بصحبة السرب رسي كوكس .

ان حبها للعلوم ورحلاتها العديدة وتقلبها في المناصب السياسية بعثت فيها رغبة التأليف والكتابة فزاوتها ونجحت فيها نجاحا اكسبها شهرة بعيدة بين علماء الشرق والغرب ؛ وقد ساعدتها معرفتها اللغات على الاجادة فيما كتبه ؛ وقد خلفت من الكتب ما يأتي : (١) الغامر والعامر Desert and Sworn (٢) من مراد الى مراد Amurath to Amurath وفي هذا الكتاب وصفت رحلتها من حلب الى بغداد الى قونية سنة ١٩٠٩ وصدرتها بمقدمة الى اللورد كرومر مع مصور للبلدان فيه خطوط تدل على الطرق التي قطعتها . (٣) الف بيعة وبيعة Thousand and One Churches كتبت هذا الكتاب باشتراك المستر رمزي (٤) الاخضر وهو بحث مطول عن تاريخ قصر ترى اطلاله في العراق (٥) تركية آسية كتبه في ابان الحرب في البصرة Asiatic Turkey (٦) بيان عن الادارة الملكية في العراق Review of the Civil Administration of Mesopotamia .

ان آثارها المذكورة تظهر نفسية الكاتبة فانها تدقق النظر في رواية الاخبار وتنقلها بامانة واخلاص إلا اذا التاث عليها الامر

في بعض المواضيع شأن كل الرخالين الافتريج : يصدق هذا الكلام على بعض مروييات في كتابها من « مراد الى مراد » اما من حيث مجموعها فانها آثار خالدة ولا سيما كتابتها عن قصر الاخضر وعن آثار سامراء واطلالها وكل ما كتبه بعد الحرب العالمة . وتمتاز كتابتها بدقة الوصف فان قلبها هناك بمثابة ريشة المصور او النقاش تمثل لك الاشياء والوقائع تمثيلا رائقا كأنك امام صورة او امام المشاهد او الحوادث عينها . ولا تعتمد في تأليفاتها الخيال إلا ما ندر ، بل انها تفوص على الحقيقة وبعد ان تظفر بها تخرجها وتعرضها على قرائها كما يعرض الغواص الدررة اليتيمة اذا عثر عليها .

السياسة

مهما بلغت من الشأو البعيد في الرحلات والتأليف فانها لم تل شهرة طبقت الحافقين عند الخاصة والعامة ، إلا بعد ان انخرطت في سلك السياسة . ولم تكد تأتي مصر سنة ١٩١٥ على ما مر بنا حتى اخلت شهرتها تسبقها الى البلاد الشرقية : ثم زادت شهرة عند نزولها البصرة سنة ١٩١٦ واشتغالها بداراة الحاكم الملكي : وعظمت منزلتها في بغداد بعد ان احتلتها جيوش البريطانيين : وبقيت تلك المنزلة في قمة المجد حتى يوم موتها . وقد كان لها

الكلمة الراجعة والرأي النافذ في جميع تطورات السياسة في العراق وكانت في دار الاعتماد «الكتوم الشرقية» ؛ ثم تولت مديرية المتحفة العراقية فخرا . وتولت ايضا مديرية خزائن السلام ؛ وقامت بتشديد مستشفى للسيدات الموسرات جمعت قسما من نفقاته من العراقيين .

اما الخطة التي انتهجتها في سياستها في العراق فهي انها سعت السعي المتواصل للتوفيق بين السيادة القومية العراقية واستقلال البلاد وبين مصالح بريطانيا العظمى في هذا القطر . فهي بريطانية مخلصه لبلادها وصديق حميم للعرب والعراقيين . وكانت عليمه بتطورات القضية العربية منذ يوم نشأتها؛ اذ كانت تراقب سيرها قبل الحرب عن كثب وتجتمع بزعمائها عند مرورها بسورية وتحادثهم بقضيتهم التي كان يدور محورها يومئذ على الحكومة اللامركزية . وقد قلت لي يوما : « ان لم يدر في خلدها آئذ ان الاتراك ينكرون على العرب طلبهم حتى يتسع الحرق على الراقع وتخرج البلاد من حكمهم » .

ولقد اعترضتها عراقيل كثيرة في نهجها السياسي من غلاة سياسة البريطانيين الذين اختلفوا في الرأي عنها في اوضاع ادارة العراق وسياسته الا انها انتصرت عليهم . ولما تقرر مصير العراق

تتوقو جلالة الملك فيصل الاول عرشه وعقدت المعاهدة العراقية البريطانية في عهد الوزارة النقيبية واصدر جلالة الملك فيصل ذلك البلاغ التاريخي في ١٣ اوكتوبر ١٩٢٢ فاستبشرت به كل الاستبشار واعربت عن سرورها في احدى رسائلها الخالدة فقالت ماتعريبه: « ان هذا اليوم خير ! اليس كذلك ؟ فاني اذهب الى ان بلاغ جلالته هو من ابدع ما ينادي به ملك شعبه وادظمه تأثيرا فيهم ! »

وكانت شديدة الاعجاب بجلالة الملك فيصل اذ ترى فيه البطل المغوار الذي اعدله الدهر وزينه ناصالة الرأي ليتولى عرش العراق وكانت ترى في شبان العراقيين عنصرا عليه قوام هذه المملكة الحديثة وهم زواد مستقبلها الباهر.

ان منزلتها العلمية والسياسية ووظيفتها في ديوان الحاكم الملكي العام : ثم في ديوان المعتمد السامي ونفوذها الادبي والسياسي اكسبها شهرة بعيدة واصدقاء كثيرين من جميع الطبقات . ولذا تسمع الاعراب والبدو يدعونها « كو كسة » فلنا منهم ان كو كس اسم وظيفة و كو كسة مؤنثها و « الحاكمة » اما لقب « الخاتون » فكاد يحل محل اسمها : وكان يقصدها العراقيون من كل الطبقات لقضاء حاجات لهم او الاخذ برأيها في صغاب الامور وحل المشكلات .

وقد بذلت أقصى الجهد في تأسيس المتحف العراقي وتنظيمها
وكانت حتى آخر يوم من حياتها قد صرفت معظم وقتها في ترتيب
العاديات والآثار القديمة في دارها الجديدة.

وفي ابان همتها دأمتها المنية غيلة فاصبحت يوم الاثنين ١٢
تموز ١٩٢٦ جثة هامدة؛ ونعتها مديرية المطبوعات بإذاعة رسمية
جاءتها: « ان هذه المديرية تذيع هذا التبا المحزن بمتتهى الاسف
نظرا لما للمس المرحومة من الاعمال الباهرة والمساعدات الثمينة
في سبيل خدمة العراق؛ ولقد فقد هذا القطر بموتها يدا كبيرة لعمله
وصديقه له» وبمثل ذلك نعتها كتومية (سكرتيرية) رئاستا للوزراء
وكان موكب دفنها فخما اشترك فيه ممثلو الملوك والامراء
والوزراء ونواب الامت واعيانها؛ حتى ردد بعضهم بيت المتنبي
القبائل:

مشى الامراء حولها حفاة كأن المس من زفه الرمال
ولا عجب ان جاء في كتاب المعتمد السامي الى رئيس وزراء
الحكومة العراقية ما يأتي: « اني متأكد ان المس بل لو تمكنت
من رؤية ما كان البارحة من مظاهر الحزن والحنو عليها لشعرت
بذاتها انها كوفئت مكافأة تامة على ما قامت به طيلة السنوات
العشر التي قضتها في العراق في الجهاد والتجرد للعمل ونكران